العربي الصغير

ملحق «للعربي» بالمجان
العدد ٣٦
ديسمبر (كانون أول) ٦٢
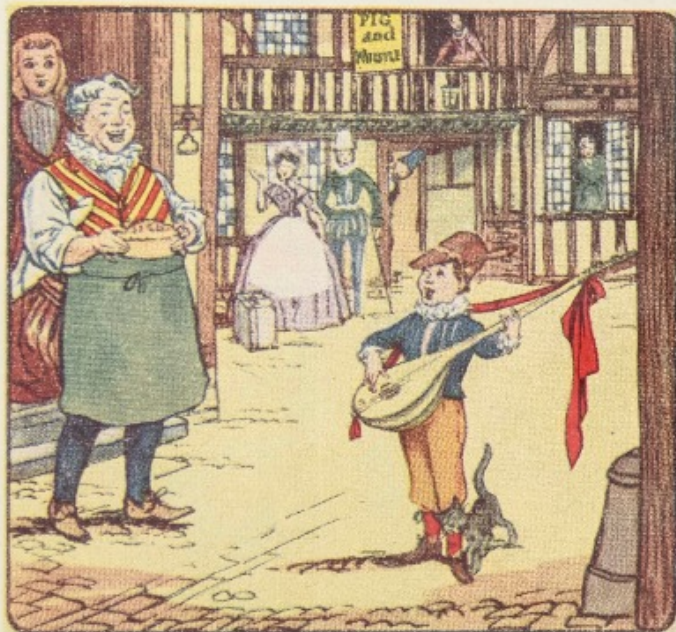
هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

كَانَ سَعْدٌ وَاحِداً مِنْ أَطْيَبِ الأَوْلَادِ ، وَكَانَ وَحِيداً وَيَتِيماً . بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدَيْهِ كَانَ سَعْدٌ يَتَنَقَّلُ مَعَ بَعْضِ الْغَجَرِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ . وَقَضَى مَعَهُمْ فَتْرَةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ . تَعَلَّمَ مِنْهُمْ أَثْنَاءَهَا الْعَزْفَ عَلَى الْعُودِ وَالْغِنَاءَ كَيْ يَمْنَحَهُ النَّاسُ بَعْضَ النُّقُودِ . وَلَكِنْ مُعَامَلَةَ الْغَجَرِ لَهُ لَمْ تَكُنْ رَحِيمَةً إِذْ كَانُوا يَسْتَوْلُونَ عَلَى كُلِّ مَا يَجْمَعُهُ مِنْ نُقُودٍ .

وَلِهَذَا فَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يُسَافِرَ وَحْدَهُ وَيُجَرِّبَ حَظَّهُ فِي الْحَيَاةِ . فَانْتَقَلَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ يُغَنِّي وَيَعْزِفُ عَلَى الْعُودِ ، وَمَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ نُقُودٍ كَانَ يُنْفِقُهُ فِي شِرَاءِ الطَّعَامِ وَالْمَلَابِسِ وَدَفْعِ أُجْرَةِ الْفَنَادِقِ الَّتِي يَنْزِلُ فِيهَا .

وانقض الكلب الكبير على قطعة اللحم وهرب بها قبل أن يتحرك سعد من مكانه .

وَفِي أَحَدِ هَذِهِ الْفَنَادِقِ أُعْجِبَ صَاحِبُ الْفُنْدُقِ بِصَوْتِهِ الْجَمِيلِ فَأَعْطَاهُ قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ اللَّحْمِ لِيَأْكُلَهَا ، فَشَكَرَ صَاحِبَ الْفُنْدُقِ وَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَكَانٍ مُنْعَزِلٍ هَادِئٍ

وأخذ يعزف على العود ويغني أمام البيت الفخم ليسترعي انتباه أهل البيت

لِيَأْكُلَهَا فِيهِ عَلَى مَهَلٍ . فَاتَّجَهَ صَوْبَ ضِفَّةِ النَّهْرِ وَجَلَسَ عَلَى الْحَشَائِشِ وَوَضَعَ قِطْعَةَ اللَّحْمِ بِجَانِبِهِ ، وَدَسَّ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ لِإِخْرَاجِ سِكِّينٍ يَقْطَعُ بِهَا اللَّحْمَ . وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ سَمِعَ حَرَكَةً فَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ فَرَأَى كَلْباً كَبِيراً عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ كَانَ قَدِ انْقَضَّ عَلَى قِطْعَةِ اللَّحْمِ وَهَرَبَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ سَعْدٌ مِنَ التَّحَرُّكِ مِنْ مَكَانِهِ .

قفز سعد واقفاً على قدميه وصار يَعْدُو وَرَاءَ الْكَلْبِ وَيُنَادِيهِ لِيُرْجِعَ لَهُ قِطْعَةَ اللَّحْمِ . وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعِ الْكَلْبُ النداء بل استمر بركض حَتَّى اخْتَفَى عَنِ الأَنْظَارِ . وَكَانَ سَعْدٌ قَدْ قَطَعَ عِدَّةَ أَمْيَالٍ وَهُوَ يَجْرِي خَلْفَهُ ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ حَوَالَيْهِ لِيَعْرِفَ أَيْنَ هُوَ . فَرَأَى نَفْسَهُ وَاقِفاً

وتوجه سعد برفقة التاجر الى الميناء حيث ترسو السفن وأشار التاجر الى سفينته .

أمامَ بوّابةِ بيْتٍ فخمٍ . . . وكانَ يُحِسُّ بجوعٍ شديدٍ .

لمْ يكنْ سعْدٌ قدْ رأى في حياتِهِ أجملَ منْ ذلكَ البيْتِ فحدّثتْهُ نفْسُهُ قائلةً : لا بُدَّ وأنْ يكونَ صاحبُ هذا البيْتِ رجلاً ثريّاً جدّاً . إنّني سأعزفُ على عودي وأغنّي لربّما أعطاني أهلُ البيْتِ بعضَ الطّعامِ أسُدُّ بهِ رمقي :

وعبثتْ أناملُهُ بأوتارِ العودِ وانطلقتْ حنجرتُهُ بالأغاني الحلْوةِ الجميلةِ ، وفي الحالِ ظهرَ أمامَهُ خادمٌ خاطبَهُ قائلاً : إنَّ سيّدي يريدُ التّحدّثَ إليْكَ وقادَ سعْداً إلى داخلِ البيْتِ ، وهناكَ تقابلَ معَ صاحبِهِ وهوَ تاجرٌ غنيٌّ كانَ قدْ سمعَ

وغضب التاجر من سعد وطرده من بيته وقدم له وزة مكافأة على خدماته .

بصوْتِ سعْدٍ وهوَ يغنّي فأعجبَ بهِ ، وأمرَ بإحضارِ ما لذَّ وطابَ منَ الطّعامِ ليأكلَ .

ولمّا انتهى سعْدٌ منَ الأكلِ سألَهُ التّاجرُ عنْ حالِهِ . فروى لهُ سعْدٌ قصّتَهُ ، ولمّا سمعَها التّاجرُ تأثّرَ وعرضَ على سعْدٍ مساعدتَهُ قائلاً : إنّني أملكُ سفينةً ستُبحرُ بعْدَ أيّامٍ في رحْلةٍ طويلةٍ ، فهلْ تحبُّ أنْ تسافرَ عليْها ، وتغنّي وتعزفَ لتسْليةِ البحّارةِ وهمْ بعيدونَ عنِ الوطنِ ؟ :

رحّبَ سعْدٌ بالفكْرةِ . وفي اليوْمِ التّالي ذهبَ برفقةِ التّاجرِ إلى الميناءِ حيْثُ ترسو السّفنُ ، وأشارَ التّاجرُ إلى إحْداها قائلاً : هذهِ هيَ سفينتي .

وصعد سعد إلى ظهر السفينة وهو مسرور وحينما أقلعت أمسك عوده بيده وراح يعزف ويغني ليطرب البحارة ، واستمر على هذا الحال طوال أيام الرحلة ، وأصبح صديقا حميما لجميع البحارة .

كان سعد في كل مرة يرجع فيها إلى بلد التاجر ينزل في ضيافته ، وبهذه الوسيلة قابل ابنة التاجر ووقع في حبها . ولما علم التاجر بعلاقة الحب التي تربط بين سعد وابنته غضب وطرده من بيته وقال له : لقد حان الوقت لكي نفترق ، ومكافأة لك على خدماتك أقدم لك هذه الوزة .

وسار سعد في شوارع المدينة يبحث عن سكن والوزة تتبعه والناس يضحكون من هذا المنظر .

أصيب سعد بصدمة قوية لأنه لم يكن يظن أن التاجر قاسي القلب إلى هذه الدرجة فالوزة مكافأة صغيرة بالنسبة لسني الخدمة الطوال التي قضاها يعمل عنده . ومع ذلك فلم يتخاصم مع رجل أكرمه وأحسن

لم يصدق سعد عينيه لقد رأى على الطاولة بيضة كبيرة من الذهب كانت الوزة قد وضعتها .

إليه . ولهذا فقد حمل الوزة وترك البيت .

وفيما هو يغادر البيت قال له التاجر : « إن ابنتي لا يمكن أن تتزوج إلا رجلا غنيا ، فإذا صرت غنيا عد إلينا لتتزوجها :

سار سعد في شوارع المدينة يبحث عن مسكن يأوي إليه وظل يبحث ويبحث إلى أن وجد فندقا قريبا نزل فيه .

وبالرغم من خيبة الأمل التي أصابته إلا أن سعدا لم يهمل الوزة ، ولما جيء بالطعام وضع سعد الوزة على الطاولة لتشاركه الطعام . وبعد أن أكلت حتى شبعت رقدت على الطاولة . وفجأة أخذت تزعق وتخفق بجناحيها فترة من الوقت حتى هدأت .

لم يصدق سعد عينيه .. لقد رأى بيضة كبيرة على الطاولة ،
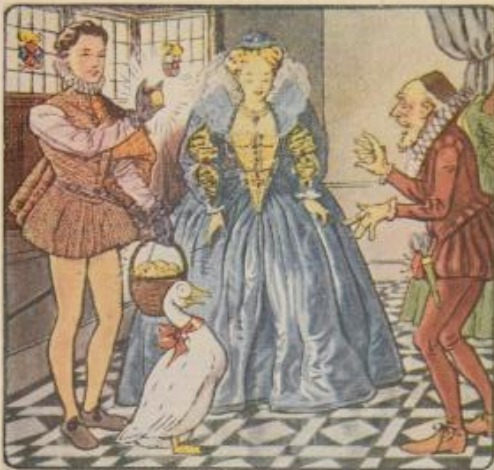
ولما رأى التاجر سعدا فتح ذراعيه واحتضنه واستقبله ببشاشة وترحاب .

وَلَـكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ بَيْضَةً عَادِيَّةً بَلْ هِيَ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ .

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَتِ الْوَزَّةُ تَضَعُ بَيْضَةً ذَهَبِيَّةً حَتَّى اجْتَمَعَ لَدَى سَعْدٍ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْبَيْضِ الذَّهَبِيِّ وَأَصْبَحَ غَنِيًّا . . فَقَرَّرَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى التَّاجِرِ وَيَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَفِيَ بِوَعْدِهِ وَيُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ .

وَلَمَّا رَأَى التَّاجِرُ سَعْداً فَتَحَ ذِرَاعَيْهِ وَاحْتَضَنَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ بِبَشَاشَةٍ وَتَرْحَابٍ وَقَالَ لَهُ : « إِنَّنِي أَرَدْتُ أَنْ أَخْتَبِرَكَ . لَقَدْ نَسِيَ شُبَّانٌ عَدِيدُونَ مَا صَنَعْتُهُ مَعَهُمْ مِنْ جَمِيلٍ . . أَمَّا أَنْتَ فَإِنَّكَ لَمْ تَنْسَ . وَلِهَذَا فَقَدْ أَعْطَيْتُكَ الْوَزَّةَ الَّتِي تَبِيضُ ذَهَباً . . . وَأُوَافِقُ عَلَى زَوَاجِكَ مِنَ ابْنَتِي .

تَزَوَّجَ سَعْدٌ ابْنَةَ التَّاجِرِ وَعَاشَ مَعَهَا سَعِيداً كُلَّ السَّعَادَةِ . ■■

تصدر وتطبع فى الكويت